السيميائيات وأفاقها الواصفة

عبد القادر فهيم الشيباني*

1- ابستمولوجيا اللغة الواصفة

لم يتضح الفارق الجوهري بين اللغة العامة ولغة العلم إلا بظهور أقطاب الوضعية المنطقية، فلم تكد لغة العلم تخرج عن لوك المعاد المكرور من الفتات الميتافيزيقي الذي تخلفه اللغة بصياغاتها المغالطة ؛ تلك الصياغات التي تحول جل المسائل الموضوعية المطروحة على منطق العلم (العدد، الزمن، الفضاء، الخ.) إلى أشباه- مسائل موضوعية تحيل إلى جمل ومفردات أو نظريات بدل أن تحيل إلى حقيقة الأشياء ذاتها[1].

وقد وجد هذا المشروع منطلقه في مفهوم التعيين الذي حدده **جون استورت ميل** عبر إزاحته من مجال المعنى إلى مجال الإحالة، فالكلمة أو العلامة تعين الأشياء قبل أن تدل على المعنى لذلك نلفي **شال ويليام موريس** يفصل بين الممدلل significatum والمعين denotatum على غرار **رودولف كارناب** في فصله بين القصد intention والمصادق extension.

وقد كان على **كارناب** أن ينتظر الفتح الذي جاء به **هيلبرت** ضمن مشروع الرياضيات الواصفة ليدعي فرضية بناء لغة مثالية (اصطناعية) فقد وجدت الرياضيات (بما فيها الهندسة والجبر، التحليل، الإحصاء، الخ.) في التحسيب مجالا صوريا كاشفا عن البنية المنطقية للتفكير الرياضي، فهو إذ ذاك يستطيع، أن يحلل مختلف العلامات الرياضية و أن يحررها من تلك المعاني الغامضة بتقديم تعاريف؛ عمليات و قواعد دقيقة ومنطقية. فـ: **فتجينشتين** يرى أنه مثلما نستطيع حل مشكل شطرنجي على الورق وعبر رموز واصفة، فإننا نستطيع حل الاشكاليات الهندسية عن طريق التحسيب ومن دون أن نؤسس لنظرية جيدة[2] ولقد أتاحت هذه الفرضية مجالا للتحري عن منطق اللغة؛ منطق يعتمد الدلالة المعرفية (التعيين= التعبيرع الموضوع) منطلقا- بدل الدلالة التعبيرية- في تأسيس تراكيب تخلو من كل ما هو ميتافيزيقي، وعن إبستمولوجيا فعلية للغة- الواصفة، يقول **كارناب**:« ... يبدو لي أن التطوير التام لفرضية اللغة- الواصفة سيسهم في إيضاح واسع في صياغة الإشكاليات الفلسفية والحديث عنها »[3]. حيث يسمح الارتفاع باللغة إلى أعلى مستوياتها التعبيرية عبر الجمل التركيبية بالاقتراب من الموضوعات والأشياء والابتعاد عن معيناتها الوسيطة. إن الجمل التي تحقق شرط الموضوعية والتي

---

* - باحث جزائري.

يستحيل تحويلها إلى جمل تركيبية ضمن إطار نظرية التركيب المنطقي للغة، تتخذ وضع جمل ميتافيزيقية تخلو من أية علاقات رياضية أو منطقية ومن أي معنى معرفي.

أفضت الابستمولوجيا السيميائية للغة الواصفة **يامسليف** إلى إحداث قطيعة مع كل ما هو واقعي ومن ثم مع الميتافيزيقا كون صورة الدلالة، وضمن التصور الغلوسيماتي، تنفك عن الارتباط بالأشياء أو حالاتها، فالعلامة ليست علامة لشيء، وإنما تجد محايثتها في تلاحم شكلي التعبير والمحتوى عبر الوظيفة السيميائية الداخلية التي تحدد العلامة بوصفها تمثلا لتعيينات اعتباطية تنصرف عن أية قيمة واقعية. ويستطيع هذا التصور أن يحفظ للعلامة خاصيتها الدلالية ضمن إطار اللغة الواصفة ويؤسس للتراتب الدلالي في كل علاقة واصفة وذلك بالنظر إلى اهتمامات النظرية اللسانية التي لا تتوقف عند حدود الوصف الصوري لشكل التعبير (أوصوره) بقدر ما تجد موضوعها في تلاحم هذا الأخير مع شكل المحتوى. فاللغة- الواصفة ضمن هذا الإطار تؤسس لتراتب اللغات (أو أي بنية مجموعاتية تتألف عناصرها من جمل أو علامات) ضمن علاقات دلالية؛ أين محتوى اللغة ن+1 هو اللغة ن، ومحتوى اللغة ن+2 هو اللغة ن+1 ، الخ.، وذلك عبر خلق علاقة تشاكلية جزئية بين مجموعة من العلامات وأخرى من المحتويات للغتين متباينتين على التوالي. في حين تكتفي اللغة- الواصفة المنطقية بالمستويات التعبيرية وتسعى لخلق تراتب بينها عبر علاقات احتوائية: ن ⊃ ن+1 ⊃ ن+2...[4].

تستمد العلاقة الواصفة مرجعيتها من ذلك التباين الحاصل بين اللغات الذي يؤسس لعماد التراتب السيميائي، فقد لاحظ **يامسليف** مدى التباين الحاصل بين الألسن الطبيعية (أو فيما أسماه باللغات- غير المقيدة) التي تستطيع أن تعبر عن أية دلالة وجدت، وتلك اللغات المقيدة التي لا تخص سوى قسما معينا من الدلالة فهي تستعمل لغايات محددة، وكل دلالة تغطيها هذه الأخيرة تستطيع الألسن أن تستوعبها مثلما تستوعب بعضها البعض[5]، بل إنها قد تمتد لتصف نفسها بنفسها أثناء عملية التواصل، فـ: **ياكوبسون** يرى أن اللغة- الواصفة ظاهرة طبيعية، لا تمثل فقط تلك الأداة العلمية الضرورية لمتطلبات المنطق أو اللسانيات، بل إنها تتغلغل في لغتنا اليومية وحتى في تمرسنا على اللغة ذاتها[6] . عبر هذه الخصيصة يستطيع اللسان أن يجد لنفسه موقعا مميزا عن باقي الأنساق السيميائية الأخرى لكونه لا يحتاج إلى أكثر من لعبة تركيبية ليصف نفسه بنفسه وذلك على نقيض تلك الأنساق السيميائية التي تحتكم إلى أسنن خاصة وتحتاج في وصف نفسها إلى أن تستعين بلغات أخرى أو إلى معايير تفتقدها (دلالية، تركيبية، تداولية).إن خاصية التعالي التي تتمتع بها الألسن تجيز لها اختراق كل الأنساق الدالة وردها إلى لغة وحيدة ومشتركة، وتجعل منها المؤول الشمولي أوالعام بوصفها سيميائية – واصفة métasémiotique . إلى هنا فإن مجموع العمليات ؛ المعايير و المبادئ التي تؤسس للغة –الواصفة تستطيع أن تؤلف بدورها مبادئ للسيميائيات العامة.

2- العلامة الواصفة

تكمن أهمية اللغة- الواصفة في طرحها لجملة من المفردات الناشئة عن مفردات اللغة- الموضوع، فهي بذلك تتمركز حول علامة العلامة، حيث تسمح العلاقة الاعتباطية المتعدية القائمة بين العلامة الواصفة والعلامة الموضوع ببلورة علامة مضاعفة تستمد خصوصيتها من ذلك المعنى التقني الذي تحمله، إنها ذلك الكيان المميز الذي لا هو بالتعبير نفسه ولا هو بالممثل لخصائصه فهو بذلك يختلف تماما عن شكل التعبير الاستعمالي[8].

ولقد مثلت العلامة- الواصفة إشكالية تقليدية عبر تاريخ فلسفة اللغة بدءا بـ: **بورفير و بويس** فيما أسماه بـ: "أسماء الأسماء" أو "أسماء الكلمات"، ووصولا إلى **أوغسطين** الذي تنبه إلى أن التصور الرواقي للعلامة (دال /مدلول) يستطيع أن يحول وعبر مبدأ الاعتباط كل الأشياء إلى علامات – ومن ثم فقد ميز بين "العلامة العادية" أو علامات الأشياء و بين "العلامة- الواصفة"، في حين ظهر مصطلح le suppositio matérialis لدى كل من **شر سوود وأوكام**، بينما حدد **كارناب** مفهوم العلامة- الواصفة بمصطلح autonym[9]. وسعيا لاستنفاذ امتدادات النسق الدال حاول **يامسليف** تقديم تصور شمولي ضمن شبكة تراتبية تتخذ الأنساق الدالة منطلقا وتقوم أساسا على ثلاثة مستويات سيميائية:

1- السيميائية التعيينية تع (مح).

2- السيميائية الواصفة تع (تع مح).

3- السيميائية الإيحائية تع مح (مح).

وقد استطاع هذا التحديد رفع ذلك اللبس الذي أثارته العلامة الواصفة لدى البعض من فلاسفة اللغة- حيث وصفت باللاعلامة، وبالتعبير المحروم من المحتوى، وبالذكر في مقابل الاستعمال، الخ.- حين حددها ضمن مستوى اللغة- الواصفة. بيد أن ما يلفت الانتباه في تصور **يامسليف** للغة الواصفة هو تحديده للعلاقة الواصفة بين علامتين (العلامة الواصفة لعلامة أخرى) و ليس بين العلامة ومستوى من مستوياتها (العلامة الواصفة لنفسها) والتي تسمى بالعلامة المنعكسة le signe réflexive. ففي مقابل العلامة الواصفة العادية: تع (تع س مح س) تتحدد العلامة المنعكسة تع1 (تع1 مح1) بوصفها:[10]

1- علامة معللة يتضمن مستوى المحتوى فيها نفس تعبيرها.

2- لا تخضع للتسنين.

3- غير قابلة للمرادفة التعبيرية؛ فالتعبير فيها غير قابل لأن يعبر عنه بتعبيرات أخرى.

4- غير قابلة للرد إلى لغة أخرى.

وإذا فإن العلامة الواصفة لا تتمظهر فقط في صورة علامة دالة على علامة أخرى، ولكنها تطرح كذلك اشكالية العلامة الدالة على "علامة خاصة" من نفس تعبيرها. مثل هذا التصور يستطيع أن يدقق صورة السيميائيات العامة في تعاملها مع الأنساق الدالة وضمن مختلف أوضاعها، وكذلك على السيميائيات العامة أن تميز بين أوضاع النسق الدال، فصورة الإشارة المرورية مثلا على صفحة من صفحات كتاب المرور تختلف تماما

عن وضعها في الواقع، لكونها تأخذ وضع علامة منعكسة؛ فهي لا تدل على أمر مروري معين، بقدر ما تدل على الإشارة المرورية في حد ذاتها.

وقد أغرى هذا التصور بشموليته الدلالية **جزييت راي- دبوف** إلى استثمار فرضية العلامة الواصفة (المنعكسة والغير المنعكسة) ضمن المستويات التي حددها **يامسليف**، وذلك سعيا لاشتمال البعد الدلالي للعلامات اللسانية الواصفة، ومشيرة في نفس الوقت إلى إمكانية إسقاط مثل هذا التصور على كل الأنساق الدالة [11].

1- السيميائية التعيينية: يرى **يامسليف** أن التعيين بوصفه قاعدة لكل لغة فهو يستطيع أن يحقق مظهره السيمائي ضمن الإطار الذي لا يتوفر فيه كل مستوى من مستوييه على الخاصية السيمائية، ذلك أن الخاصية السيميائية لأي نسق ترتبط بالحضور الثنائي والمتزامن لمستويي التعبير والمحتوى. فبعض الأنساق التعيينة تستطيع أن تحقق شرط قابلية الرد إلى اللسان، لكنها تقوم أساسا على مستوى وحيد كتلك الأنساق التركيبية الخالصة من مثل الصيغ الرياضية، والموسيقى، الخ.، وتلك الأنساق الرمزية التي توجد في تماثل مع مؤولاتها، وصولا إلى تلك العلامات المحاكية . ويقترن المبدأ السيميائي للتعيين (التعيين= التعبيرع المحتوى) بالمرجعية السوسيرية التي ترى أن العلامة تعرف بدلالتها، ففي ظل مبدأ القيمة كشف لنا الوعي السيميائي عن الثنائية الشكلية للتعبير والمحتوى، وذلك على خلاف التوجه المنطقي الذي يقرن الخاصية السيميائية بمستوى التعبير وحده، لذلك ألفينا اللغة- الواصفة المنطقية- والتي حددها المناطقة الوضعيون (**كارناب**)- تعتمد التركيب أساسا لها[12]. وتتألف السيميائية التعيينية من أنساق منعكسة وأخرى غير منعكسة: [13]

أ- الأنساق الغير المنعكسة: يتألف هذا النسق عادة من علامات مسننة واعتباطية موكلة للتحدث عن عالم الأشياء عبر انتقالها من الدلالة على العلامة إلى الدلالة على عالم الأشياء؛ أي أنها تتحول من وضع العلامة الواصفة المنعكسة تع1 (تع1 مح1) إلى تجاوز شق المحتوى (تع1) ضمن علامة مجازية. وتنتظم هذه الأنساق ضمن صيغة عامة: تع1 (مح1). إذ يمكن لهذه الصيغة أن تضبط الوضعية السيميائية الدقيقة لتلك العلامات المجازية، من مثل تلك التي حددها **ياكوبسون** ؛ فالرسم التكعيبي مثلا و بوصفه نسقا سيميائيا، لا يعمل إلا على تحويل الموضوعات إلى سلسلة من المجازات الكلية، وكذلك تأخذ التقنيات السينمائية (تقنية الإطار المكبر، المونتاج، الخ.) وضع علامات مجازية صيغتها العامة: تع1 (مح1).

ب- الأنساق المنعكسة: يتألف هذا النسق من تلك العلامات المحاكية (anomatopéiques) التي يتوحد فيها التعبير بالمحتوى ويصعب ضمنها التمييز بينهما، وتوصف عادة بضجيج اللغة، علامات هذا النسق غير قابلة للمرادفة وتأتي تارة مسننة وأخرى غير مسننة لكونها معللة. وتنتظم ضمن صيغة عامة تع1 (تع1).

وتستطيع هذه الصيغة أن تضبط وضعية تلك الأنساق السيميائية التي تستند على علامات حسية في جوهرها من مثل العلامات الشمية والعلامات الذوقية وكل العلامات المحاكية فمثل هذه العلامات لم تحظ بالدراسة السيميائية، ويشكك البعض في إمكانية إدراجها ضمن الأنساق التواصلية المعتادة اللسانية أو البصرية

فقط لكونها غير قابلة للوصف وتعريفها يخرج عن متناول اللغة. لكن المتأمل في تلك المنتجات العطرية مثلا، يلفي أن تلك الأسماء أو العلامات التي اختيرت لها لا تمثل في واقع الأمر سوى محتويات -شمية تأخذ وضع شكل تعبيري منعكس: تع1 (تع1).

2- **السيميائية الإيحائية**: تتحدد سيميائية الإيحاء في الوقت الذي يتخذ فيه مستوى التعبير وضعا سيميائيا؛ أي في الوضع الذي يتحول فيه مستوى التعبير إلى علامة تحقق الشرط السيميائي للتعيين[14]، وبعبارة أخرى فإن سيميائية الإيحاء تحول كل نسق أولي (تع مح) إلى مستوى تعبيري بسيط ضمن نسق ثان (تع مح) مح، صيغة تنقل النسق الأول من وضعيته التعيينية إلى درجة إيحائية يحقق ضمنها مستوى التعبير المبدأ السيميائي. فالعلامة تنشأ للوهلة الأولى بوصفها موضوعا استعماليا إذ يكتسب هذا الموضوع انطلاقا من المجتمع غايات دلالية تتراكم ضمن مستويات لغوية متباينة تتخذ العلامة الأولية قاعدة لها، فمثلا يحتاج التوظيف المتوارد (خدمة الدفء) للمعطف الريشي بوصفه علامة إلى لغة من الدرجة الثانية ليستطيع أن يحقق عبرها وجوده الإيحائي، ويتم ذلك عبر إعادة تمثيل العلامة نفسها بوصفها تعبيرا وذلك حتى تتوافق مع المؤسسة الدلالية الجديدة (الرفاهية). فالعلامة الإيحائية هي بمثابة قناع حقيقي يتولى إخفاء الحقيقة الدلالية للعلامة. وبدورها تنقسم السيميائية الإيحائية إلى أنساق منعكسة و أخرى غير منعكسة:[15]

أ- **الأنساق الغير المنعكسة**: ينبغي تمييز الصيغة العامة للعلامة الإيحائية ضمن مجال السيميائية الإيحائية وذلك بحسب الطبيعة السيميائية أو اللسانية التي يحددها التعبير، فإذا كان التصور السيميائي العام يحدد العلامة الإيحائية بوصفها ذلك التعبير الذي يتخذ المحتوى التعييني جزءا منه: تع مح (مح)، فإنها تأخذ ضمن التصور اللساني وضع ذلك التعبير المتعالق بالمحتوى التعييني من جهة، والإيحائي من جهة أخرى: تع1 (تع1 محں)، إذ ينتسب هذا الأخير تارة إلى عالم الأشياء من مثل محتوى القوة للأسد، وأخرى إلى عالم اللغة- وهو الذي يهمنا- فيأخذ وضع علامة قائمة بذاتها (محں= تع2 مح2) ضمن صيغة عامة تأخذ ضمنها العلامة الإيحائية وضعا واصفا:

تع1[مح1(تع2 مح2)] فتدل حضوريا و بالغياب على محتواها الإيحائي . ويبرز هذا النوع من الإيحاء بجلاء ضمن "النسق البلاغي" الذي حدده **رولان بارت** للموضة:[16]

3- الإيحاء
2- التعيين: اللغة الواصفة
1- النسق الواقعي

تع	البلاغة	مح	الإيديولوجيا
تع	مح		
تع	مح		

ب- **الأنساق المنعكسة**: يتحدد الإيحاء المنعكس ضمن الصيغة العامة للإيحاء تع1(مح1 محں) حيث يتخذ المحتوى الإيحائي (محں) وضع علامة تع1 (مح1) ضمن صيغة عامة تع1[مح1(تع1مح1)] وتستطيع تمفصلات هذه الصيغة أن تحدد وبدقة الوضع السيميائي لصيغ مقول القول بين حالات التقديم تع1لمح1(تع1 مح1)] والتأخير تع1

(تع1 مح1)، وأن تستوعب كل المقاطع المنعكسة للعلامات المحاكية تع1 [تع1(تع1تع1)]، و الواصفة تع1[تع س مح س(تع1مح1)] كقولنا: /التشاكل مثلما سماه **غريماس**/، ويمكنها أن تمتد إلى تلك الإيحاءات المنعكسة التي تأخذ وضع استعارات كلامية كقولنا: / الأفكار الخضراء تنام غاضبة مثلما قال تشومسكي / فمثل هذه الجملة تتحدد بوصفها مقطعا منعكسا لإيحاء منعكس ضمن الصيغة تع1[تع1مح1(تع1مح1)] . وبشكل عام فإن سيميائية الإيحاء المنعكس تخص بالتحديد كل التعابير و الصيغ اللغوية التي تستمد مرجعيتها من المعرفة بعالم اللغة لا بعالم الأشياء كأسماء الأعلام، عناوين الآثار الإبداعية، الخ. أين يوجه القصد فيها إلي التعبير، فأسماء الأعلام لا تعين علاماتها الخاصة ولا تصفها بل توحي إليها: تع1[؟ (تع1؟)]، وكذلك هي عناوين الآثار الإبداعية فهي تأخذ وضع إيحاء منعكس صيغته العامة: تع1[تع س مح س(تع1؟)].

وتكمن أهمية هذا التصور للإيحاء المنعكس في امكانية تحديد الوضع السيميائي لظاهرة التناص، ذلك أن القيمة الدلالية لآلية التناص تتجلى أساسا عبر فعل إيحائي متبادل بين النصين المتناصين فالنص الأول يوحي إلى النص الثاني عبر تحميله بقيم دلالية إضافية، بينما يوحي النص الثاني إلى النص الأول عبر التذكير به. ومهما تكن طبيعة العلاقات التناصية المتعددة فإن العلاقة التي ندركها بين بعض عناصر النصين تؤلف دالا للإيحاء، بينما تأخذ تلك القيم الدلالية المحولة (من التمظهر إلى التضمين)؛ انطلاقا من تغاير وضعية النصين، وضع مدلول للإيحاء، حيث يأخذ كل من دال الإيحاء : ومدلوله صورة منعكسة ضمن وضع التناص تع1 [مح1(تع1مح1)].

وقد لاحظت **ك. كيربرايت- أوريشيوني** على غرار **ميشال أريفي**، أن مفهوم الإيحاء- المنعكس الذي حددته **دبوف** يمكنه أن يمتد إلى تلك التمظهرات الغير لسانية، وأن يحتل أنساقا سيميائية متباينة: كالرسم، والموسيقى، وحتى السينما، الخ[17]. وبالفعل يستطيع هذا التصور أن يحل عديد الإشكالات المرتبطة بتداخل العلامات أو النصوص ضمن مجال الأنساق السيميائية التي تقوم دلالتها أساسا على استراتيجية تناصية كالإشهار مثلا، حيث يسهم تحديد تخوم النصوص المتداخلة في فضح الآلية الدلالية لصورة التناص.

3- السيميائية الواصفة: قد يحدث أن يتخذ مستوى المحتوى وضعا سيميائيا ضمن الإطار الذي يتحول فيه إلى علامة تحقق الشرط السيميائي في التعيين، فالسيميائية الواصفة تعمل على مضاعفة المستوى التعبيري للنسق التعييني ضمن لغة واصفة تتخذه صعيدا للمحتوى، حيث تتولى ضمنها السيميائية الكبرى معالجة السيميائية الصغرى تع (تع مح)[18] وتنقسم السيميائية الواصفة إلى أنساق منعكسة وأخرى غير منعكسة: [19]

أ- الأنساق الغير المنعكسة: لسانيا، يتألف هذا النسق من كلمات لسانية- واصفة تدل على قسم من الكلمات و تأخذ وضع مفردات شمولية archilexèmes. وهي تأخذ في الغالب وضع خطاب حول اللغة تع1 (تع س مح س) أو حول اللغة الواصفة تع1[تع1 (تع س مح س)]. وتستطيع هذه الصيغة أن تشمل بالتحديد تلك العلامات المضاعفة بعلامات أيقونية عامة، فصورة الإشارة المرورية مثلا، تتخذ وضعا سيميائيا تع1(تع س مح س) مغايرا تلك

الإشارة المرورية الواقعية تع س(مح س)، فإذا ما حولنا هذه الصورة إلى رسم تبسيطي (كاريكاتوري) لانتقلنا إلى وضع واصف مضاعف تع1 [تع س(تع س مح س)].

ويندرج ضمن هذه الأنساق صورة الأسطورة التي حددها **رولان بارت**، فهو يرى أن الأسطورة تتخذ وضع لغة واصفة لكونها لغة تتحدث عن لغة، إذ تتحول ضمنها كل علامة من النسق الأولى إلى دال بسيط ضمن مستوى النسق الثاني (مستوى الأسطورة)، فالمصارعة الحرة تأخذ وضع علامة أسطورية في الوقت الذي تبدوا فيه واصفة للمصارعة الإغريقية بسياقاتها (الفرجة، العرض، الألم، العراك، الصراخ القوة، صخب الجمهور، الخ.)، حيث تتحدد آليتها الدلالية ضمن العلاقة التماثلية المعللة التي تحول علامة المصارعة إلى دال بسيط ضمن مستوى الأسطورة[20].

ب- **الأنساق المنعكسة**:وتمثل مجموع الأنساق التي تأخذ ضمنها العلامات صيغة عامة تع1(تع1 مح1)، إذ تستطيع هذه الأنساق أن تنقل تلك العلامات المنعكسة من وضع وحدات غير مسننة على صعيد الكلمات المنعكسة إلى وضع علامات مسننة على صعيد الجمل، أين تأخذ العلامات المنعكسة وضعا سيميائيا أكثر ملائمة من مثل تلك الكلمات الغامضة: تع1 (تع1؟)، والصور البيانية تع1(تع1)، وكذلك العلامات المحاكية وحتى أسماء الأعلام، ذلك أن الكلمات المنعكسة لا تكثرت بالسنن فهي في غالب معللة، ولا حتى بشكل التمدلل الذي استعملت له، وهي في الوقت نفسه غير قابلة للمرادفة أو أن ترد إلى لغة أخرى .

إذ يمكن للسيميائيات العامة ضمن هذا الإطار أن تشمل بالتحديد حالات الأيقون المنحل؛ بوصفه علامة تنشأ عن الوضع المضاعف للأيقون الأصلي (أيقون أصلي x أيقون أصلي = أيقون منحل)، فصورة تمثال أفلاطون مثلا، تأخذ في الحقيقة وضعا سيميائيا واصفا انطلاقا من النسق المنعكس لوضع التمثال، وكذلك يعتمد الفن التشكيلي على أشكال غريبة وغامضة تأخذ وضعها السيميائي بوصفها أنساقا دالة ضمن صيغة يحددها الوضع الواصف تع1(تع1؟)؛ فالشكل أو اللون لا يجد دلالته إلا إذا جسد ضمن تمثل حسي (لوحة، مجسم، الخ)، ولا يختلف الحال بالنسبة لتلك الخطاطات التبسيطية للأمكنة مثلا، التي تعمل على رفع ذلك الغموض الحاصل عن كثرة التفاصيل المدركة عبر عملية تجريدية تنقلها إلى وضع لغة واصفة تع1 لتع1(تع1 مح1)[.وينطبق الأمر نفسه على تلك الأصوات المحاكية إذا ما سجلت على شريط سمعي مثلا، إذ أنها تأخذ ضمن هذا الأخير وضع لغة واصفة تع1(تع1تع1) وتقربنا من الوضع الأولي لهذه العلامة. تتولى اللغة الواصفة ضمن هذا الإطار فتح مكنون العلاقة الاعتباطية الغامضة بين التعبير والمحتوى، إذ تسعى إلى بلوغ نواة العلامة (الوظيفة السيميائية) لاستكشاف الحقيقة الدلالية لعلاقة التعبير بالمحتوى، ويتم ذلك في صورة نشاط يسعى لخلق مستوى تعبيري يتوافق مع المحتوى الجاهز الذي تحدده العلامة الأولية .

تستطيع السيميائية الواصفة أن تعالج السيميائية العلمية فتأخذ وضع سيميائية علمية واصفة، مثلما تستطيع معالجة السيميائية الغير علمية فتأخذ وضع سيميائية غير علمية واصفة وهو حال السيميائيات la

sémiologie التي حددها **سوسير**، حيث تتحدد السيميائيات الواصفة métasémiologie بوصفها سيميائية علمية واصفة تتخذ السيميائيات موضوعا لها[21].

3- السيميائيات الواصفة (métasémiologie)

إنه إذا ما سلمنا بأن السيمائيات تسعى إلى وصف كل ما هو سيميائي (أي كل سيميائية) داخل اللسان؛ لا تختلف بهذا عن اللسانيات التي تصف اللسان بالعودة إليه في الوصف، فإننا سنجد السيميائيات- الواصفة تدور في حلقة تكرارية- في وصفها لسيميائية السيمائيات (السيميائية- الموضوع)- لتلك المعطيات التي انتهت إليها السيميائيات، وذلك لأنها مطالبة بتحقيق التطابق الكلي أو الجزئي مع السيميائية- الموضوع. إن الفرق هنا يكمن حسب **يامسليف** في حصرية موضوع السيميائيات- الواصفة في مقابل ميعان موضوع السيميائيات، وهو الأمر الذي يرهن سلامة التراتب السيميائي الذي حددناه سلفا، إذ لا مجال لأي ارتقاء سيميائي- واصف في ظل غياب حدود الموضوع الموصوف؛ أو في ظل وصف سابق للموضوع نفسه[22].

فإذا ما أبنا إلى تلك المحاولات و/ أو التنظيرات السيميائية التي أفرزتها جهود **رولان بارت** (الموضة، الأسطورة، الأثاث، الطعام، السيارات، الخ.) لألفيناها، حسب تصور **يامسليف**، لا تخرج عن حدود السيميائيات، حتى وإن اشتغلت في كل هذه الأنساق الدالة على نسق الأنساق، وحتى وإن قدمت وصفا "عبر- لسانيا translinguistique تتداخل فيه اللغة - الواصفة مع الإيحاء إنها تمثل لسانيات من الدرجة الثانية تهتم باللغة- الواصفة كما بالإيحاء؛ وبشكل عام ببناء أسنن أو بإعادة بنائها انطلاقا من اللغة[23]، فهي بذلك أقرب إلى الوصفية من أن تكون واصفة. و من جهة أخرى فإن **بارت** لا يقر بإمكانية تراتب اللغات الواصفة إلا في وجود موضوع واقعي مشترك بينها يؤلف أساس الوصف الذي تقدمه، حيث يترتب على السيميائيات- الواصفة أن تتولى اختيار شق متميز من تلك المواضيع التي يطرحها الموضوع الواقعي، ومثل هذه الاختيارات تحددها السيرورة التاريخية لتلك العلوم الإنسانية التي تتخذ السيميائيات موضوعا لها؛ فرضا، بوصفها تعاقبية من اللغات – الواصفة[24].

يتحدد موضوع السيميائيات كغيره من العلوم الإنسانية ضمن طرق و أساليب معرفة وإدراك الواقعة المادية حيث تسعى وجهات النظر المحددة ضمنها؛ أي تلك الوظائف أو الغايات العملية (اللسان؛ الدلالة، التواصل، التداول، الخ.) إلى الملاءمة المعرفية لتلك الطريقة أو الأسلوب في إدراك الواقعة المادية، فهي بذلك لا تدرس الموضوع ذاته بقدر ما تهتم بأسلوب وطريقة إدراكه ومعرفته من هنا تبدو وجهات النظر فيها مائعة وغير محددة، فالفونولوجيا مثلا لا تدرس الأصوات ولكنها تدرس تلك الفونيمات التي تؤلف طريقة أو أسلوبا في إدراك ومعرفة الأصوات [25]. إن طرق وأساليب إدراك ومعرفة الوقائع المادية بوصفها موضوعا للعلوم الإنسانية عامة و السيميائيات خاصة، تفترض في الوقت نفسه طرقا وأساليب خاصة في إدراك ومعرفة وقائع أخرى فهي بذلك دالة

(significative) بانتظامها من جهة، وقابلة للمدللة (la sémantisation) من جهة أخرى [26] وهو ما يعني أن قابليتها للمدللة يوهم في كثير من الأحيان، المعرفة نفسها بكونها لغة- واصفة.

وحتى لا تقع السيميائيات- الواصفة في حلقة تكرارية للوصف الذي تقدمه السيميائيات، فإنه ينبغي عليها أن تهتم بتلك التغيرات المحتملة للنسق الدال و كل ما يجعل منه نسقا خاصا؛ فهي بذلك لغة للكائن والممكن، و ليس عليها البتة أن تخوض في وصف تلك القضايا التي تندرج في نظرية السيميائيات، بل ينبغي أن تتولى إخضاع محتوى العلامات الدنيا للسيميائيات إلى تحليل علائقي يتناسب مع نفس تلك القواعد التحليلية للنصوص، بالارتفاع عن المستوى الشكلي للسيميائيات إلى مستوى الجوهر، مهمتها في ذلك أن تقدم تحليلا تاما وبسيطا غير متناقض، لتلك التمظهرات الغير قابلة ضمن مجال السيميائيات إلى أن ترد إلى محتويات أو تعبيرات. ويفترض تغيير وجهة النظر هذه – الإنتقال من السيميائية الموضوع إلى السيميائية الواصفة- بالنسبة للسيميائيات الواصفة استحداث أدوات جديدة لدفع عجلة التحليل المستفذ من قبل السيميائيات إلى الأمام وذلك بتطبيق مناهج السيميائيات نفسها.[27]

إن للسيميائيات- الواصفة كامل القدرة على استعاب موضوعات السيميائية التعيينية والسيميائية الإيحائية، ففي اللسان يمكن لها أن تعالج مواضيع الصوتيات والدلاليات بوصفها سيميائية تعينية؛ ومواضيع اللسانيات الاجتماعية واللسانيات الخارجية (التي حددها **سوسير**) بوصفها سيميائية إيحائية فتشمل بذلك مختلف معاني المحتوى (الجغرافية؛ التاريخية السياسية، الدينية، الخ) بهذا المعنى فإن علوما من مثل الاجتماعيات، الإثنولوجيا وعلم النفس ستجد نفسها مطالبة بالاسهام في بناء سيميائيات واصفة[28].

الهوامش:

1-J.J.kartz, La philosophie du langage, trad.J. Gzio, Paris , éd. Payot , 1971 ,pp.35-36.
2-J. Bouverse, La parole Malheureuse, de l'alchimie linguistique à la grammaire philosophique, Paris, éd. Minuit, 1971,pp.162-163.
3-J. Rey- Debove, Le Métalangage , étude linguistique du discours sur le langage ,Paris ,éd. Armand Colin, 1997, p.20.
4-L. Hjemslev, Prolégomènes à une théorie du langage , trad. U. Canger , suivie de , La structure fondamentale du langage , tard. A-M. Léonard, Paris, éd. Minuit, pp.183-184.
6-R. Jakobson, Essais de linguistique générale , les fondements du langage , tard. et préf. N. Rewet , Paris , éd. Minuit, 1963,pp.217-218.
7-D Bougnoux , Les sciences du langage et de la communication, in, Epistémologie des sciences sociales (sous la dir. J-M Berthelot), Paris, éd. P.U.F. , 1re éd., 2001, p.168.
8-J. Lyons, Eléments de sémantique , trad. J. Durant , Paris ,éd. Larousse, 1978, pp.16-17.
9-J. Rey- Debove, le métalangage , pp. 84-87.
10-J Rey Debove , La réflexivité et le blocage du sens , in, A. Rey , théories du signe et du sens , II, Paris, éd. Klinckseick, 1976, p.226.
11-Idem.
12-Hjelmslev, Op. Cit., pp.139-144.
13-Voir J. Rey-Debove, La réflexivité et le blocage du sens.
14-L.Hjelmslev, Op. Cit.,P.150.
15-Voir: J. Rey- Debove , La réflexivité et le blocage du sens.
16- R. Barthes , L'aventure sémiologique , Paris , éd. Seuil,1973,p.79.
17-C.Cerbrat -Orecchioni, La connotation ,Lyon, éd .P.U.F., 3éd., 1977,p.129.
18- L.Hjelmslev, Op. Cit.,p.150.
19-Voir: J.Rey- Debove , La réflexion et le blocage du sens.
20- R. Barthes, Mythologies, Paris, éd. Seuil, 1957,pp.299-200.
21-. L.Hjelmslev, Op. Cit.,p. 151.
22- Idem.,p.152.
23-L. Porcher, Introduction à une sémiotique des images , sur quelques exemples d'images publicitaires , éd . Marcel Didier, Paris, 1976,pp.12-13.
24-R. Barthes, L'aventure sémiologique, pp.79-80.
25-L.J. Prieto, Pertinence et pratique , essais de sémiologie, Paris, éd .Minuit,1975, pp.155-156.
26-Idem.,p.147.
27- L.Hjelmslev, Op. Cit.,pp.152-155.
28-Idem.,pp.156-157.